روضة الحكايات!!

(١١)

تَراهُ في البحثِ مثلَ البحر!!

الدكتور

محمد عمر الحاجي

obeikandl.com

obeikandl.com

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

عجبٌ... .عُجاب!!

في لقاءٍ ضمّ الأصدقاء ، وذلك بسبب توافُدِهم لعيادة صديقهم (يامن) الذي داهَمَهُ المرض منذ أيام... ، كان هناك سهرةٌ رائعة ، حيث تجاذب الأصدقاء أطراف الحديث ، وتناقشوا في بعض المواضيعِ التي تهمّهم .

وكان نجم السهرة (عبد الخالق) ، فقد أضفىٰ علىٰ جوّ السهرة الفرحَ والمرحَ ، وذلك من خلال الفكاهات والألغاز التي وجهها إلىٰ أصدقائه... ، حتىٰ إن (يامن) كان يقوم من فراشه يريد المشاركة ، وقد نسي أوجاعه وما هو فيه..!

وبعد أن تناولوا القهوةَ بالحليب... وأكلوا بعض الحلويات... قال (عمير) لصديقه (يامن) : لقد سمعتُ منك ذات يومٍ عن وجود مكتبةٍ عامرة في بيتكم ، وهي ملك والدك ، ولكني حتىٰ الآن لم أشاهدْ شيئاً .

فابتسم (يامن) وقال : إن مكتبةَ والدي قد ملأت جدرانَ الغرفة الكبيرة ، وقد بدأت تمتد منذ شهور إلىٰ صالون البيت...!!

ثم نادىٰ (يامن) أخاه الكبيرَ (سعدون) وقال له :

لا بأس أن تَصحبَ صديقنا (عُمير) إلىٰ الغرفةِ الكبيرة.. وإلىٰ الصالون ، فهو يحب الاطلاعَ ـ ولو سريعاً ـ علىٰ مكتبة والدي...

فقال (سعدون) : يبدو أنه من الذين يعشقون الكتابَ... ويحبّون اقتناءه...!!

فقال (عمير) : وهل هناك أفضلُ من مجالسةِ الكتبِ ؟ إنها الصديقةُ الوحيدة التي لا تغتاب أحداً بل هي مليئة بالفائدة والنفع والخير...

... واصطحب (سعدون) صديقَ أخيه.. وتركَه يشاهدُ الكتبَ والمجلدات والقصص والمجلات .

واستغرق (عمير)... بل استمتع كثيراً... وردّد أكثر من مرّة : ليت عندنا مثل هذه المكتبة... ، وليت والدي يستبدلُ التحفَ التي في بيتنا والتي لا روحَ ولا حِراكَ فيها ، ليتَهُ يستبدلُها بالكتب التي كلما جلستَ إليها حدّثتكَ بما هو مفيد...

ثم أخرج من جيبه بعضَ الأوراق وراح يسجّل بعض الملاحظات...

... وفجأة سمع (عمير) صوتَ جرسِ الباب ، فأراد العودةَ مسرعاً إلىٰ غرفة صديقه (يامن)... ظناً منه أن وجودَه في غرفةِ الكتبِ قد يُزعج والدَ (يامن)...

... وفتح (سعدون) الباب ، واستقبل والده مبتسماً... ، فقال الوالدُ مازحاً : ما الذي يضحكك يا عزيزي ؟!

قال (سعدون) : لقد وجدنا من أصدقاء أخي (يامن) نسخةً عنك...!

ولما دخلا الصالون... قدّم (سعدون) إلىٰ والدِه صديقَ أخيه بقوله : هذا الشابُّ من عشّاق الكتب... إنه (عُمير)...

وسلّم والد (سعدون) علىٰ (عمير)... واصطحبه إلىٰ مكتبِه... وراح يحدّثه عن هوايتِه

فـي اقتنـاءِ الكتـبِ ، وقـدم لـه بعـضَ النصـائـحِ والإرشادات... ثم التفت إلىٰ يده ، فرأىٰ فيها بعضَ الأوراق ، فسأله : هات ما عندك من ملاحظات يا عمير .

... ابتسم (عمير) وقال : لا ، أحبّ أن أقولها أمام الأصدقاء... عسىٰ أن تجعلَ فيهم دافعاً نحو حبِّ وعِشْقِ الكتب...

وبـالفعـل ، دخـل (أبـو سعـدون) ومعـه (عميـر) إلـىٰ غـرفـة (يـامـن).. وبعـد السـلام والترحاب... اطمأنَّ الوالد علىٰ ولده... وقال له : لقد شفاك الله وعافاك... ونسيت كلَّ شيءٍ ـ حتىٰ المرض ـ وذلك عندما زارك الأصدقاء والأحباب... فذاك فضلٌ من الله ورحمة...

... وراح (عمير) يحدّثهم عن بعضِ ما رأىٰ

وشاهد... في مكتبة (أبي سعدون) لكن أعجب ما قاله :

... لقد رأيت عدّةَ مجلّداتٍ ضخمةٍ... ، فاقتربت منها فإذا عددها يتجاوز (١٣)... أخذت أحدَها ، فإذا عددُ صفحاته تزيد عن (٦٠٠) صفحة ، فقلتُ في نفسي إذاً إن عدد صفحات هذا الكتاب يتجاوز (٩٠٠٠) صفحة!!

... فنظر الأصدقاء... بعضهم إلىٰ بعض... وقالوا : فما هو اسمُ ذاك الكتاب ؟

قال (عمير) : إنه (فتح الباري شرح صحيح البخاري) ، لابن حجر العسقلاني...

... ولكنَّ الأعجبَ من ذلك أني ـ وأنا أبحث في المكتبة ـ رأيت كتاباً آخر من عشرة مجلدات كبيرة... ، فاقتربت منه ، فإذا هو لابن حجر أيضاً ، وعنوانه (لسان الميزان)...!!

ثم انتقلت إلىٰ الحائط الغربي للمكتبة ، فإذا بي أرىٰ عدة مجلدات ضخمة ، ولها عنوان واحد هو (الإصابة في تمييز الصحابة)... وهو أيضاً من تأليفِ الحافظِ (ابن حجر العسقلاني)!!!

* * *

obeikandl.com

محاضرة قيّمة عنه

وسأل والد سعدون الشابَّ (عمير) قائلاً : ما هو رأيك في أن تترجمَ حياةَ الحافظ (ابن حجر) وتنقلها في محاضرة مسائية من محاضراتِ الموسمِ الثقافيّ للمعهد ؟

وهكذا كان فعلاً ،... ومما حَفِظَه الناس من المحاضرة :

في عائلةِ فضلٍ وعلمٍ وتقىٰ وورع ، وفي العام (٧٧٣هـ) ، وفي مصر وُلد الحافظ ابن حجر ونشأ وتَرَعْرعَ فيها... ، وكالعادة فقد انكَبَّ علىٰ قراءة علوم عصره ، خاصة علوم الشريعة...

وتفقّه علىٰ يدِ كبارِ العلماء مثل (البلقيني)

و(ابـن الملقّـن) و(العـراقـي) و(الهيثمـي) و(العز ابن جماعة) وغيرهم..

بعد ذلك عمد إلىٰ التَّرحال ، لا من أجل المالِ والجاهِ ، إنما من أجلِ تحصيلِ العلم .

لذلك كان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يردّد :

وإذا الدّيارُ تنكرّتْ سافرتُ في
طلـبِ المعـارفِ هـاجـراً لِـديـاري
وإذا أقمـتُ فمُـؤْنِسـي كُتبـي فـلا
أنفـكُّ فـي الحـالَيـنِ مـن أسفـاري

وكانت رحلته الأولىٰ إلىٰ اليمن ، حيث التقىٰ فيهـا بكبـارِ العلمـاء والفقهـاء ، فـأخـذ عنهـم... واستفاد منهم...

ثم كانت الرحلةُ الثانية إلىٰ الديارِ الحجازية المقدسة ، وكان هدفُه منها هو ذاتَ الهدفِ من الرحلة الأولىٰ .

وأما رحلته إلىٰ بلادِ الشام ، فكانت رحلةً موفّقةً ، حيث اجتمع فيها بأكابرِ العلماء ، أمثالِ إمامِ قبّةِ الصخرة (عبدالرحمٰن المقدسي)... .

* * *

obeikandl.com

تفوّقه... . ونبوغه

تابع (عمير) حديثه بالقول :

ومن أهمِّ العواملِ التي ساعدتْ (ابن حجر) علىٰ التفوّق والنبوغ ، وتحصيل كثيرٍ من العلوم ، أنه نشأ في بيئة علمٍ.. فوالُده.. وجدُّه.. وأمه.. وأخته... وكلٌّ من حوله كان يُنظر إليه في العلم...

إضافة إلىٰ نشاطِه ومداومتِه علىٰ طلبِ العلمِ ، بحيث كان يستغلُّ كلَّ دقائقِ حياتِه بالتعليم أو التعلّم ، وقد ورد عنه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ قوله :

(إنني لأتعجبّ ممن يجلسُ خالياً عن الاشتغال)!!

هذا ، إضافة إلىٰ الذكاء الذي وهبه اللهُ إياه ، مع

القراءةِ السريعة ، والكتابة السريعة و.. ، ولذلك أبدعَ في مجالاتِ التصنيف إبداعاً رائعاً .

حتىٰ قيل لقد تجاوزتْ مصنفاتُه المئتين والخمسين كتاباً!!

وكذلك كتب في جوانبَ كثيرةٍ من العلوم ، حيث كتب في العقيدة ، وعلوم القرآن ، وعلوم الحديث . وفي التاريخ والتراجم ، وفي الفقه ، وفي علوم اللغة وما إلىٰ هنالك...

* * *

ليس التصنيف وحده!!

... والذي يتابعِ (ابن حجر) في تصنيفاته الكثيرة ، يظنّ أنه كان متفرّغاً لها فقط ، لكن ترجمة حياته تدلّ علىٰ أنه قام بأعمال أخرىٰ ، بل تحمّلَ مسؤولياتٍ كثيرةً ، وذلك من خلال تَبوُّئِه لبعضِ المناصب :

فقد مارس التدريسَ في المساجد والمدارس ، حيث درّس التفسيرَ في المدرسة الحسينية ، ودرّس الحديثَ في جامع ابن طولون ، ودرّس الفقهَ في مدرسة الصالحية وغيرها .

إضافة إلىٰ الإفتاء ، والقضاء ، والخطابة ، والإمامة ، والوعظ و...!!

وامتازت مسيرةُ حياتِه بالأخلاقِ الحميدةِ الفاضلةِ ، فقد كان متواضعاً إلىٰ حدِّ أنه لا يحب أن يُقال عنه : عالم.. أو حافظ ونحو ذلك..

وكان إذا أُسيء إليه لا ينتصرُ لنفسه.. ولا يغضبُ.. إنما يردّد : (لا شكوىٰ إلا إلىٰ الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وحسبنا الله ونعْم الوكيل)...

وكان رحمه الله بعيداً عن التعصّبِ ، منصفاً في البحث ، موضوعياً ، مخلصاً لله ، صادقاً مع الناس ، تالياً للقرآن الكرَيم ، قائماً في الليل ، مبتهلاً إلىٰ الله سبحانه .

* * *